

أعلام التصوف في المشرق والمغرب ومدارسه



أهداف الدرس

1. أن أتعرف بعض أعلام التصوف في المشرق والمغرب ومدارسه.
2. أن أثبت مميزات المدرسة المغربية في التصوف.
3. أن أتمثل التصوف السني علما وعملا.

تمهيد

معرفة أعلام التصوف تعين على التأدب بآدابهم، والاقتباس من آثارهم، وتقديرهم حق قدرهم، ومعرفة أحوالهم، والاستهداء بمسالك تربيتهم، وقد عُرف في المشرق والمغرب صالحون وصالحات كان لهم فضل إنشاء الرباطات، وعقد الحلقات، وجمع الناس للذكر والتربية في المجالس والمدارس والزوايا والمساجد.

فمن هم أبرز أعلام التصوف في المشرق والمغرب؟ وما أهم مدارسهم؟

نص الانطلاق

1. قال الشيخ زروق -رحمه الله- «أقرب الطرق للجادة وأبعدا من الدعوى، وأيسرها للسلوك، وأمسكها بالسنة طريق الشاذلية؛ إذ لا ترتيب فيها ولا تركيب، وإنما هي التحقيق باتباع السنة وشهود المنة، والتحقيق في صحبة المشايخ بصدق الهمة، فعليكم بها فإنها طريق الحق بلا غلط، ومسلك التحقيق بلا مغالطة، وتعين عليها الطباع لوجود أصلها عندها وهي العبودية التي لا تعب فيها، والله سبحانه أعلم». [قواعد التصوف، ص 132].

2. قال الفقيه محمد بن جعفر الكتاني -رحمه الله- «مر في هذه البلدة العظيمة المقدار (فاس) من العلماء والأولياء ما لا ينحصر كثرة، ولا تستوعبه الأسفار...، ولكن لقلّة اعتناء أهل هذا المغرب بالتاريخ ضاع أكثرهم، وخفي على كثير من الناس جمهورهم ومعظمهم...، فكم

فيهم من فاضل نبيه طوى ذكره عدم التنبيه، فصار اسمه مهجورا كأن لم يكن شيئا مذكورا...، فكم من إمام مضى موصوفا بالعلم أو مشهورا بالخير والصلاح لم يقع لهم به اعتناء واحتفال، بل ألقى في زوايا الإغفال والإهمال...» [سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس، ص 7].

الفهم

الشرح:

- **الهمة:** تعلق القلب بالشيء المهم به، وكمالها اتصال القلب بالكلية بالله.
- **العبودية:** صدور أعمال البر من العبد لله تعالى عاريا عن طلب الجزاء.

استخلاص المضامين:

- استخلص من النص الأول دواعي تفضيل الطريقة الشاذلية لدى الشيخ زروق، ومن النص الثاني أسباب عدم معرفة بعض الأولياء والصلحاء.

التحليل

أولا: أعلام التصوف في المشرق

لا يتسع المقام لذكر جُل الأعلام، وسنقتصر على الإشارة إلى بعضهم على وجه الإيجاز والاختصار-بترتيب زمني- ومنهم:

- **الحسن البصري (ت: 110هـ)** نسبة إلى البصرة بالعراق، إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمانه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء النساك، قال عنه الإمام الغزالي: «ولقد كان الحسن البصري رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأقربهم هديا من الصحابة رضي الله عنهم، اتفقت الكلمة في حقه على ذلك، وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب، وفساد الأعمال، ووساوس النفوس والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس» [إحياء علوم الدين، 1/77]. وأكد ذلك الإمام الذهبي بقوله «كان سيد أهل زمانه علما وعملا» [سير أعلام النبلاء، 4/565].

- **إبراهيم بن أدهم (ت: 162هـ)** التيمي الخراساني البلخي، نزيل الشام، القدوة للإمام العارف، المعروف بسيد الزهاد، كان كبير الشأن في الورع، من أقواله ما ذكر الإمام القشيري أنه قال لرجل في الطواف: «اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات: أولاها: تغلق باب النعمة،



وتفتح باب الشدة. والثانية: تغلق باب العز، وتفتح باب الذل. والثالثة: تغلق باب الراحة، وتفتح باب الجهد. والرابعة: تغلق باب النوم؛ وتفتح باب السهر. والخامسة: تغلق باب الغنى، وتفتح باب الفقر، والسادسة: تغلق باب الأمل، وتفتح باب الاستعداد للموت» [الرسالة القشيرية، ص 13].

- معروف الكرخي (ت: 200هـ) عَلمَ الزهاد، من كبار الصوفية في بغداد، من أقواله: «إذا أراد الله بعبد شراً أغلق عنه باب العمل، وفتح عليه باب الجدل». من المواعظ التي انتفع بها ما حكاه عن نفسه قائلاً: كنت ماراً بالكوفة، فوقفت على رجل يقال له: ابن السماك وهو يعظ الناس، فقال في خلال كلامه: من أعرض عن الله بكلية أعرض الله عنه جملة، ومن أقبل على الله بقلبه أقبل الله برحمته إليه، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه وقتاً ما. فوقع كلامه في قلبي، فأقبلت على الله تعالى، وتركت جميع ما كنت عليه.

من تلاميذه الزاهد العابد «سري السقطي» (ت: 257هـ) خال الإمام الجنيد وأستاذه.

- ذو النون المصري (ت: 245هـ) اسمه ثوبان وقيل الفيض، فائق في هذا الشأن، وأوحد وقته علماً، وورعاً، وحالاً، وأدباً، كان يقول «مدار الكلام على أربع: حب الجليل، وغض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل» وكان يقول: «من علامات المحب لله عز وجل: متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه، وأفعاله، وأوامره، وسننه» [الرسالة القشيرية، ص 13].

وما أشرنا إليه من أعلام التصوف في المشرق على سبيل الإشارة، وغيرهم كثير، ومنهم: بشر بن الحارث الحافي (ت: 227هـ) والحارث بن أسد المحاسبي (ت: 243هـ) وسهل بن عبد الله التستري (ت: 243هـ) والإمام الجنيد (ت: 298هـ)، والحكيم الترمذي (ت: 320هـ)، وأبو القاسم القشيري (ت: 465هـ) وأبو حامد الغزالي (وسياتي الكلام عليه) وعبدالقادر الجيلاني (ت: 561هـ).

ثانياً: أعلام التصوف في المغرب

تواترت الأخبار عبر السنين أن المغرب بلد الأولياء والصالحين، عُرف أعلامه باتباع التصوف السني القائم على العلم والعمل، واتباع الكتاب والسنة، ومن هؤلاء الأعلام:

- أبو العباس السبتي (ت: 601هـ) أحمد بن جعفر أحد كبار المتصوفة ومشاهيرهم «أعجوبة زمانه، وفريد عصره وأوانه، ذو الكرامات البينات التي لا تحصى، والآيات الباهرات التي لا تستقصى، القطب الرباني...، السبتي الأصل المراكشي الوفاة» [سلوة الأنفاس، ص 73]. ذكر في زهده وورعه «أنه لا يترك لنفسه ناصباً من المال إلا قدر ما يقوته وعياله في يومه، وباقيه



يتصدق به، وكان فصيح اللسان، لا يناظره أحد إلا أفحمه، حتى كأن مواقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه» [النبوغ المغربي، عبد الله كنون، 151/1 بتصرف].

– **عبد السلام بن مشيش (مات رحمه الله شهيدا حوالي 625هـ)** هو الشيخ العارف أبو محمد عبد السلام بن مشيش، وُلد في جبل العلم، بثغر تطوان، وصفه العلامة عبد الله كنون بقوله «كعبة العلم المنيف، ونبعة النسب الشريف، بيد أنه لم يعتمد غير العمل الصالح، وسلوك المنهج الواضح. وقد سأله رجل أن يوظف عليه وظائف وأورادا يعمل بها فقال: أرسول أنا؟ الفرائض مشهورة، والمحرمات معلومة، فكن للفرائض حافظا، وللمعاصي رافضا، واحفظ نفسك من إرادة الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات، واقنع من ذلك بما قسم الله لك، إذا خرج لك مخرج الراضي فكن له شاكرا، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عليه صابرا. ورفض الدنيا قطب تدور عليه الخيرات، وأصل جامع لأنواع الكرامات، وحصون ذلك كله أربعة: الورع، وحسن النية، وإخلاص العمل، ومحبة العلم. ولا تتم له هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح، أو شيخ ناصح» [النبوغ المغربي، 151/1 بتصرف].

وقد تخرج على يديه الشيخ أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية المنتشرة في العالم الإسلامي، فهو أحد أقطاب التصوف الذين عليهم المدار.

– **عبد الجليل القصري (ت 608هـ)** من أهل القصر الكبير، وبالنسبة إليه شهر، وصفه الإمام الذهبي -رحمه الله بقوله- «الشيخ، الإمام، العلامة، العارف، القدوة، شيخ الإسلام...»، كلامه في طريقة التصوف سهل محرر، مضبوط بظاهر الكتاب والسنة، وله مشاركة في العلوم وتصرف في العربية، ختم به التصوف بالمغرب، وتوفي بسبته» [سير أعلام النبلاء، 12/22].

– **الشيخ أحمد زروق الفاسي (ت 899هـ)** من أهل فاس (بالمغرب) فقيه محدث صوفي، تفقه في بلده وقرأ بمصر والمدينة، نشأ يتيما، وتولت جدته «أم البنين» تربيته، وكانت من الفقيهات الصالحات، أدخلته الكتاب وحفظ فيه القرآن الكريم وهو ابن عشر سنين، نبغ في مختلف العلوم، وغلب عليه التصوف فتجرد وساح، له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، وانفرد بجودة التصنيف في التصوف، ورحل إلى مختلف البلدان، وتوفي في ليبيا [الأعلام، للزركلي، 91/1 بتصرف].

وغير هؤلاء من الصلحاء والسادة أهل الفضل والافتداء كثير، ومنهم: أحمد بن العريف الطنجي، وعلي بوغالب القصري، وعلي بن حرازم، وأبو شعيب الدكالي، وأبو يعزى



الهسكوري، وأبو مدين الغوث، وأبو محمد صالح الماجري، وابن عاشر، وعلي الجمل، والعربي الدرقاوي، ومحمد البوزيدي، وأحمد بن عجيبة... وللإستزادة من معرفة أعلام التصوف وأقوالهم وأخبارهم وسيرهم وأحوالهم، تُنظر المظان التي ألفت في هذا الشأن.

النساء الصوفيات: لم يكن التصوف مقتصرًا على الرجال، فكتب التاريخ تتضمن إشارات إلى ما كان من تصوف النساء، ومن خلال النظر في كتاب «التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي» لابن الزيات يظهر ما كان من أهل الصلاح والولاية بالمغرب من الرجال والنساء، وذكر صاحب كتاب «سلوة الأنفاس ومحاذئة الأكياس» جماعة من النساء الصالحات بالمغرب. ومن المشهورات بالصلاح والولاية السيدة «منية بنت ميمون الدكالي» «وأصلها من مكناس ونزلت في الجانب الشرقي من مراكش، وبه توفيت عام خمسة وتسعين وخمسائة، ودفنت خارج «باب الدباغين»» [التشوف إلى رجال التصوف، ص 216]. وقال عنها العلامة عبد الله كنون في سياق بيان من نبغ من النساء في العلوم «ومنهن في التصوف والعلوم اللدنية السيدة «منية بنت ميمون الدكالي» وسواها كثيرات» [النبوغ المغربي، عبد الله كنون، 77/1].

مدارس التصوف في المشرق والمغرب

بين مدارس التصوف في المشرق والمغرب امتداد وتكامل؛ أثمره التلاقح الفكري والاجتهاد في العلم والعمل، وتأسس ذلك بالتدريس، والتربية في المساجد، والزوايا، وتأليف الكتب، وكتب لهذه المدارس الانتشار على يد من انتسب إليها من الأعلام بما واصلوه من جهود النشر والتأسيس، ونجمت عنها طرق غايتها تيسير الطريق على العامة، وتربية الخاصة، وتحديد البداية، وتصحيح النية والعبادة، ولا ضير أن تعتبر تلك الطرق مدارس أيضا بمنهجها السلوكي العملي القائم على المراقبة والمحاسبة، وهي ثمرة تطور علمي وعملي، غايته تحقيق السعادة في الدارين.

والمدارس الصوفية من أكثر المدارس ثراء في التاريخ الإسلامي بما تحققه من سعادة روحية تستمد رؤيتها من الكتاب والسنة، وتقوم على العلم والعمل في طريقة المغاربة المؤسسة على منهج الإمام الجنيد، ويرى العلامة عبد الله كنون أن «أحسن من كان يمثله من الوجهة العلمية والعملية أبو علي بن حرزهم» [النبوغ المغربي، عبد الله كنون، 77/1].

ومُنظر هذه المدارس في التصوف السني الإمام الجنيد «سيد الطائفة» الذي يعتبر مدرسة صوفية سنية مستقلة (كما سيأتي بيانه في الدرس الخاص بالإمام الجنيد) تفرعت عنها طرق ومدارس في المشرق والمغرب، ولها جهود في نشر العلم، وتحقيق التزكية في النفوس، وترسيخ أحكام الدين وتعاليمه، وأثمرت أثرا كبيرا في التربية والتعليم، ومن هذه المدارس:



1. المدرسة القادرية.

أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت: 561هـ) ومؤسسها وإن لم يكن مغربيا فقد تلقى المغاربة طريقته بالتعاون عن طريق تأسيس الزوايا، وتفرعت عن هذه المدرسة مجموعة من الطرق والمدارس، وحقت انتشارا واسعا في المجتمع المغربي، وأسهمت في التربية والتعليم، وتهذيب أتباعها من خلال الأوراد والأذكار.

ومن أعلام هذه المدرسة: أبو مدين الغوث العالم المراكشي (ت: 594هـ) الذي نقل الطريقة القادرية إلى المغرب بعد أن تلقاها من مؤسسها الشيخ الجيلاني بعد أدائها لشعيرة الحج.

2. المدرسة الشاذلية.

مؤسسها علي بن عبد الله أبو الحسن الشاذلي المغربي (ت: 656هـ) وهو «رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة» ولد في بلاد «غمارة» بريف المغرب، ونشأ في قبيلة «بني زروال» وتفقه وتصوف بتونس، وسكن «شاذلة» قرب تونس، فنسب إليها «الأعلام، للزركلي، 305/2 بتصرف]. وصف بأنه «الحامل في وقته لواء أهل العيان، حجة الصوفية، علم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، القطب الغوث الجامع...، لم يدخل طريق القوم حتى كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة...، وكان الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد رضي الله عنه يقول: «ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه» [الطبقات الكبرى، الشعراني، 4/2].

3. المدرسة التيجانية.

أسسها الشيخ أحمد التَّجَّاني (ت: 1230هـ) أبو العباس شيخ الطائفة التيجانية بالمغرب. كان فقيها مالكيا عالما بالأصول والفروع، ملما بالأدب، تصوف ووعظ وأقام مدة بفاس وتلمسان، وحج سنة 1186هـ فمر بتونس، وعاد إلى فاس...، واستقر بها إلى أن توفي» [الأعلام، للزركلي، ص 216].

4. المدرسة الدرقاوية.

أسس الطريقة الدرقاوية ببني زروال، وهي طريقة شاذلية، تلقاها مولاي العربي عن شيخه الإمام الجليل الشيخ العارف بالله الدال على الله علي بن عبد الرحمن العمراني الفاسي المعروف بالجمال، من طريق الشيخ أحمد زروق، وعن أبي المحاسن يوسف الفاسي من طريق الجزولي، فهي أيضا شاذلية جزولية زروقية. والطريقة الدرقاوية «مبنية على اتباع السنة في الأقوال والأفعال والعبادات والعادات، ومجانبة البدع كلها في جميع الحالات، مع كسر النفس وإسقاط التدبير والاختيار، والتبري من الدعوى والافتقار، والإكثار من الذكر آناء الليل وأطراف النهار» [سلوة الأنفاس، 192/1].



مميزات المدرسة الصوفية المغربية:

تميزت مدارس التصوف في المغرب باتباعها «طريقة الجنيد السالك» وغلبة التقشف والزهد والورع، ولم يكن أربابها منقطعين عن الحياة الاجتماعية، بل مؤثرين فيها، متفاعلين مع أحداثها، وعنيت بالتنشئة على التربية الصوفية، والاهتمام بالمناقب والكرامات، وهو ما أثر شيوع التصوف في مختلف فئات المجتمع.

التقويم

1. أضع خطاطة تتضمن أهم أعلام التصوف في المشرق والمغرب.
2. ما هي أهم مدارس التصوف بالمغرب؟
3. أذكر مميزات المدرسة الصوفية المغربية.

الاستثمار

قال العلامة عبد الله كنون متحدثا عن أحد أعلام التصوف المغربي «أبو العباس السبتي» «وكان حليما صبوراً عطوفا يحسن إلى من يؤذيه، ويحلم بمن يسفه عليه، برا باليتامى والمساكين، رحيماً بهم، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرقات، ويحض الناس على الصدقة ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار فتنهال عليه من كل جانب فيفرقها على المساكين وينصرف. وكان ناسكاً متعبداً، ورده من القرآن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار. وقد اتخذه أنيساً وسميراً واستخرج منه من دقائق العلوم ولطائف الإشارات في المجاهدة ورياضة النفس شيئاً عجبياً. وبالجمله فهو رجل من أعاجيب الدنيا، وترجمته أوسع من هذا».

[النبوغ المغربي، عبد الله كنون، 151/1]

أتأمل النص، وأبين من خلاله أهمية معرفة سير العلماء الأعلام وأثرها في تزكية النفس.

الإعداد القبلي

أعد ترجمة للإمام الجنيد البغدادي، وأبحث عن سبب اختيار المغاربة لطريقته في التصوف.